النص القرآني بين التفسير ونظريات التلقي (٤)

أ.د. عبد الرحيم الكردي

إذا كان التفسير هو بحث عن المعنى في النص القرآني، وإذا كانت القراءة الإبداعية هي بحث عن المعنى الذي نشأ في ذهن القارئ عند قراءة النص، فماذا عن التأويل؟

التأويل كما حدد الشيخ محمد عبده هو جعل الآراء والأفكار التي يعتنقها أصحاب المذاهب أصلا وجعل النص القرآني فرعا لها، فالتأويل مثل التفسير خاص بالمعنى، لكن ليس المعنى المستنبط من النص وإنما محاولة للي عنق النص كي يتوافق مع المعنى الذي سبق للمؤول أن اعتنقه من قبل خلال اتباعه للمذهب الذي ينتمي إليه.

ولذلك فإننا نجد لكل مذهب من المذاهب تأويلا خاصا به للنص الواحد، وهذا التأويل يخدم هذا المذهب دون ذاك، فهناك تأويلات الشيعة، وهناك تأويلات المعتزلة، وهناك تأويلات للخوارج، كل حسب المذهب الذي ينتمي إليه، ومن الطريف أن هذه التأويلات كانت تالية لنشأة المذاهب الدينية ذات الأصول السياسية، وأثرا من آثارها، وليست هي السبب في نشأة المذاهب كما يتصور البعض، بل مازلنا نقرأ تأويلات مذهبية معاصرة حول تعدد الزوجات.

على أن هناك شكلاً من أشكال التأويل لم ينشأ من تأثير المذاهب الدينية أو السياسية، بل نشأ من عوامل أخرى، مثل الاختلافات الثقافية، والتطورات الزمانية، والتحولات المكانية.

هذه التأويلات لا تنتمي إلى القراءة الإبداعية للنص، لأنها تدعي أنها تبحث عن المعنى الناشئ من القراءة المعاصرة للنص في ذهن القارئ، بل هي نوع من التأويل لأنها تدعي أنها تبحث عن المعنى الكامن في النص، المعنى الموضوعي المطلق، فهي لا تُدرس ضمن نظريات التلقي أو نظريات القارئ، وإن كانت قريبة منها إنها تفسير من زاوية معينة.

وقد نشأت في الدراسات الغربية المعاصرة مدارس تعنى بتقنين أصول معرفية لهذا النوع من التأويل أطلق عليها «المدارس السيميولوجية» أو «مدارس العلامات» وأحياناً يطلقون عليها «علم العلامات»، لأن النتائج التي أسفرت عنها جهود هذه المدارس، أصبحت من الدقة والتقنين إلى الدرجة التي أتاحت لأصحابها وصف هذه الجهود بأنها علم «من العلوم».

والأصل الذي يقوم عليه هذا العلم - إذا صح أن يسمى علماً - هو أن كل شيء في حياة الناس له وظيفتان: وظيفة نفعية، يتعامل الناس بها فيما بينهم، ووظيفة أخرى دلالية يضفيها المجتمع على هذا الشيء، فالناس مثلاً يستعملون النار والماء والهواء والسحاب والأشجار وغير ذلك، يستخدمونه في مخاطباتهم أو في رسوماتهم، أي أنهم يستخدمونه بوصفه علامة تدل على معنى معين، باعتباره رمزاً أو إشارة إلى هذا المعنى.

ويرى السيميولوجيون، أن كل مجتمع له ثقافة محددة لابد أن يكون له منظومة متكاملة من العلامات، هذه المنظومة تتيح له التعبير عن جميع الأفكار والمشاعر والعواطف التي تدور في هذا المجتمع بحيث تكون فيما بينها بنية معرفية تتماثل مع البنية المعرفية العميقة لهذا المجتمع.

ويرون أيضاً أن العلاقة بين العلامة (الدال) وبين المعنى (المدلول) ليست علاقة عضوية أو علاقة تقوم على التشابه، بل هي علاقة ثقافية، ومن ثم فإن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العلامة الواحدة قد تدل على شيء في ثقافة، بينما تدل في ثقافة أخرى على شيء آخر.

ويطلق السيميولوجيون على هذه المنظومة الكبيرة التي تجمع كل العلامات المعبرة عن المعاني في ثقافة معينة مصطلح «نص» فهناك حسب قولهم «نص ياباني» و«نص صيني» و«نص عربي» أي مجموع العلامات التي يستخدمها الشعب الياباني ومجموع العلامات التي يستخدمها الشعب الصيني والشعب العربي وهكذا.

وأن أي نص صغير سواء أكان قصة أو قصيدة شعرية أم نصاً دينياً مكتوباً حسب النظام العلاماتي اللغوي لهذه الثقافة إنما يخضع في فهمه وتفسيره لهذه المنظومة الثقافية، فإن صورة البومة مثلاً علامة توحي بمعاني التشاؤم والخراب في المنظومة العلاماتية العربية بينما توحي بمعاني الحكمة في الثقافة الغربية، ومثل ذلك ألوان الثياب الأبيض والأسود وغير ذلك.

إن استخدام معطيات هذا العلم في فهم آيات القرآن يحف به العديد من الصعوبات والمخاطر التي تجعله يقترب من التأويل المذموم بكل ما يحمله من عيوب، لعدة أسباب:

أولاً: أن القرآن الكريم حقاً استخدم اللغة العربية نفسها التي استخدمها الجاهليون في عصر نزوله، واستخدم أيضاً المنظومة التعبيرية العلاماتية التي كان يستخدمها العرب الجاهليون وأن العلماء العرب عندما تصدوا لتفسير القرآن الكريم كانوا بارعين حقاً، حينما حاولوا تسجيل هذه المنظومة العلاماتية عن طريق الاحتفاظ بكل بيت في الشعر وكل خطبة و نص ينتمي إلى هذه المنظومة العلاماتية

كانت التأويلات تالية لنشأة المذاهب الدينية ذات الأصول السياسية وأثراً من آثارها وليست هي السبب في نشأة المذاهب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من البساطة بحيث تتخذ شكل العلامات أو الأيقونات التى تعمل على ميكنة الدلالة التى لا تنتبه إلى المعانى الثانوية وظلال المعانى التى تكمن فيها أسرار الجمال القرآنى.

ثانيا: أن العلامة الواحدة داخل الثقافة الواحدة قد يتطور الوعى بها نتيجة لتطور المعارف والعلوم، فيتطور مدلولها نفسه، وعندئذ يكون على قارئ النص فى هذه الثقافة أن يختار بين المدلول القديم والمدلول الحديث، فإذا التزم بالمدلول القديم - وبخاصة فى القرآن الكريم - تقوقع مفهومه فى إطار تاريخى محدد، لا يتلاءم مع المنظومة الفكرية المعاصرة، وإذا اختار المدلول المعاصر وقع فى دائرة التأويل التى قد تربط النص الدينى بظواهر معرفية ربما يثبت خطؤها بعد حين.

مثال ذلك أن القرآن استخدم السماء والأرض والنجوم والشهب وغير ذلك استخداماً دلالياً علاماتياً وكانت هذه الأشياء تدل على مفاهيم تتلاءم مع معارف الإنسان العربى وقت نزول القرآن الكريم، لكن قارئ القرآن اليوم يفهم من السماء والأرض والنجوم غير الدلالة السابقة لأن وعيه يمتد اليوم إلى أبعاد ثقافية علمية بخلاف المنظومة العلاماتية التى تعتمد على الثقافة العربية فى العصر الجاهلى.

وقد انساق كثيرون فى اتجاه استخدام المنظومة الحديثة، أمام عدم استطاعتهم إلغاء وعيهم العلمى بالدقائق التى يجدونها متطابقة مع العلامات الموجودة فى القرآن الكريم وبخاصة فيما يتعلق بأعضاء الإنسان وأطوار خلقه وبأجزاء الكون وحركته. وعدوا عملهم هذا نوعاً من التفسير الدقيق للقرآن الكريم، ولقى تفسيرهم هذا قبولاً من الناس. ويحذر آخرون - من أمثال أمين الخولى - من الانسياق وراء هذا النوع من التفسير لأنه يربط المعانى الخالدة للقرآن الكريم بنظريات علمية ربما يثبت خطؤها فى المستقبل، أو ربما يظن بعض الناس أن نتائجها جزء من المعطيات الدينية فيرفضون كل نظرية تبطلها، مما يؤدى إلى الجمود العلمى والفكرى.

ثالثا: أن العلامات الواردة فى النص تعد مستوى أرفع من المستوى اللغوى، فهى ليست مرتبطة بمعانى الكلمات التى قد تتغير مدلولاتها من عصر إلى آخر، مثلما تغيرت كلمات: النفاثات من معنى الساحرات إلى معنى الطائرات والسيارة من معنى القافلة إلى معنى العربة. وهذا التغير فى معانى الكلمات لا يدخل فى إطار العلامة التى هى الشئ نفسه أى صورته وهيئته فى أذهان الناس - ومدلول هذه الصورة وقد دخل فى الإسلام شعوب كثيرة تنتمى إلى ثقافات متعددة مما جعل الناس يتفاوتون - حتى فى العصور المتقدمة - فى فهم مدلولات هذه العلامات، فهذا ابن الراوندى الملحد مثلاً لا يستطيع وصف أنهار الجنة بأنها لبن لأنه حسب قوله "لا يشتهيه إلا جائع"، ويقول أيضا إن الزنجبيل ليس من لذيذ الأشربة كل ذلك يبين أن الاعتماد على هذا العلم الذى يسمى بعلم العلامات لا يفى بمتطلبات التفسير القرآنى أو التعبير الفنى وإن كان يساعد كثيراً فى وصف ظاهرة التفسيرات المتعددة للنص القرآنى فى العصور المختلفة وفى البيئات المختلفة.

وإن هذا العلم مثله فى ذلك مثل نظريات التلقى إنما ظهر فى الغرب لتلبية مطالب نصية تنتمى إلى ثقافات غير الثقافة العربية الإسلامية التى لها خصوصيتها ولها مقوماتها، وتتجلى النصوص الدينية المنزلة بلغتها بسمات لا يمكن لهذه النظريات الوافدة أن تدركها.

فهل نشأت فى الثقافة العربية جهود تفى بمطالب تفسير النص القرآنى بأدوات منضبطة فى التحليل واستنباط المعنى إلى الحد الذى يمكن أن يطلق عليها مدرسة؟ أو على المدى الذى يمكن البناء عليها لتطوير مدرسة عربية معاصرة فى قراءة النصوص أو تفسيرها؟

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com